الوظيفة النقدية للتربية والعملية التعليمية وفق المدخل السوسيولوجي التربوي لدوركهايم

علي شريف حورية دحماني سمراء

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة جامعة محمد خيضر بسكرة

الملخص:

يعتبر دوركهايم من أبرز رواد الاتجاه الوظيفي، وأكثرهم تأثيرا في تطور النظرية السوسيولوجية.

تتميز أعماله بتنوع اهتماماتها، وتأسيسها للأسس العلمية والمنهجية لعلم الاجتماع، وقد وضع تصوره وبسط تحليلاته حول علم اجتماع التربية من خلال كتابه التربية وعلم الاجتماع، حيث نظر إلى التربية بأنها شيء اجتماعي بإمكانها أن يغير المجتمع ككل.

واعتبر المدرسة الوسط الاجتماعي الذي يحدد الأفكار والمثل والقيم، والتي هي من أهم مقومات الحياة الجمعية.

نهدف من خلال هذا العمل عرض أهم أفكاره والقضايا والافتراضات التي طرحها في مجال سوسيولوجيا التربية، للتعرف على مشروعه السوسيولوجي التربوي.

Abstract :

Durkheim is one of the leading career leaders, and most influential in the evolution of sociological theory.

His work is characterized by a variety of interests and the establishment of the scientific and methodological foundations of sociology. He developed his conception and extended his analysis on the sociology of education through his book Education and Sociology.

He considered education as a social thing that could change society as a whole. And values, which are among the most important elements of life.

The school is considered as the social environment that defines ideas, ideals and values, which are among the most important elements of social life.

Through this work, we aim to present his most important ideas, issues and assumptions in the field of sociology of education, to identify his educational sociological project.

مقدمــة:

لا يستطيع الباحث أو الدارس في علم الاجتماع التربية، فهم أساسيات هذا العلم، والمسارات النظرية، والتطبيقية لهذا العلم دون الرجوع إلى الآراء والمساهمات والنظريات التي جاء بها هؤلاء، سواء المفكرين منهم في مجال التربية والباحثين فيها، أو الرواد والعلماء الذين هم في الأصل علماء اجتماع، بحثوا وكتبوا في النظرية الاجتماعية، وفي مناهج وأدوات علم الاجتماع، وحللوا مكونات البناء الاجتماعي وعلاقتها بالفرد والجماعة، وكانت لهم إسهامات عديدة في طرح قضايا، وتناول مشكلات تربوية بالدراسة والتحليل، ومن أبرزهم إميل دوركهايم الذي تناول موضوع التربية، ولكن كظاهرة اجتماعية في إطارها الاجتماعي العام، ولقد كان من السباقين الأوائل الذين اعتمدوا في تحليلاتهم في دراسة الظاهرة التربوية، على منظورات علم الاجتماع العام، واستعانوا بمناهجه وأدواته في دراستها، كما ركز على علاقة التربية بالعوامل الاجتماعية، وعلى وظيفتها الاجتماعية، ومؤسساتها، وخاصة فيما تعلق بعملية التنشئة الاجتماعية، والتطبيع الاجتماعي، وكيف يمكن للتربية وخاصة من خلال النظام التعليمي والذي يعتبره من أهم وسائل تطبيع الفرد وتحويله إلى كائن اجتماعي متشبع بقيم مجتمعه، وعاداته ومعاييره، وما لذلك من أثر في الحفاظ على توازن المجتمع وتكامله واستقراره .

لذا سنحاول من خلال ما يأتي عرض أهم أفكاره والقضايا والافتراضات التي طرحها في مجال التربية وسوسيولوجيا التربية، لنتقرب أكثر من مشروعه السوسيولوجي التربوي، وذلك عن طريق فهم المقاربة السوسيولوجية التي طرحها في مناقشته لوظيفة التربية والتعليم في المجتمع، لنقترب أكثر من القضايا التي عالجها، والاطلاع على مناحيها وحيثياتها واختلافاتها، وإسهاماتها في فهم المشكلات التي يعاني منها النظام التربوي، والعمل على تطويره وإصلاحه.

وخاصة فيما يتعلق بالقضايا ذات الصلة بعلاقة التربية بالمجتمع.

– فكيف ينظر اميل دوركهايم إلى وظيفة التربية النقدية والعملية التعليمية؟.

والى دور التعليم في المجتمع وأهدافه ؟.

وللإجابة على هذه التساؤلات سنتناول العناصر التالية:

أولا – التعريف بدوركهايم:

ولد دوركهايم (1858–1917) في مدينة إبنسال بمقاطعة النوج شرق فرنسا بالقرب من الالزاس، من أبوين حاخامين، وكيهودي منتم لمنطقة الالزاس، فقد التحق بمدرسة المعلمين العليا سنة 1879 حيث تخصص في الدراسات الفلسفية، واهتم بفلسفة التربية، وعهد بتدريس التربية في جامعة بوردو، ثم تقدم برسالته للدكتوراه إلى جامعة السربون في موضوع تقسيم العمل الاجتماعي عام 1893، والتي تضمنت أهم أفكاره حول الظاهرة الاجتماعية. وقد شق طريقه الفكري خارج النظام الاكاديمي منذ البداية، وإن انتهى إلى السيطرة عليه من خلال احتلاله لكرسي الاستاذية بجامعة باريس[1].

وقد مكانته هذه النشأة بالاهتمام بقضايا الدين والأخلاق، وكذا قضايا التربية، إضافة إلى مجهوداته في الاهتمام بقضايا علم الاجتماع، "فالأمر الوارد والمتفق عليه أن دوركهايم بذل جهدا واضحا لتحديد علم الاجتماع، والتأكيد على طابعه النوعي الذي يميزه عن العلوم الطبيعية، من جانب، وعن علم النفس من جانب أخر، وفي سبيل هذا اهتم بتحديد خصائص الظاهرة الاجتماعية – بصرف النظر عن اتفاقنا على مصداقية هذه الخصائص– بوصفها المقولة السوسيولوجيا الأساسية أو الموضوع الأساسي للبحث السوسيولوجي[2]". لذا وقبل عرض أهم القضايا التي طرحها في مجال سوسيولوجيا التربية، ولفهمها أكثر لابد من الإشارة إلى إسهاماته في السوسيولوجيا، باعتبارها منطلقا لفكره التربوي.

---

[1]– ياس خضير البياني، النظرية الاجتماعية جذورها التاريخية ورواده، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، 2002، ص 90.

[2]- عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ، سلسلة عالم المعرفة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص 84.

ثانيا– أهم إسهامات دوركهايم في السوسيولوجيا:

يعتبر دوركهايم من أبرز رواد الاتجاه الوظيفي، وأكثرهم تأثيرا في تطور النظرية السوسيولوجية، وتحتل كتاباته وتحليلاته منزلة رفيعة بين أوساط الباحثين والدارسين في علم الاجتماع، وحتى في الكثير من العلوم الاجتماعية الأخرى. نتيجة لتنوع اهتماماته وأبحاثه في مجالات متعددة من ناحية. وتركيزه على وضع الأسس العامة لظهور علم الاجتماع، من خلال محاولته لمتابعة أعمال أوجست كونت من ناحية أخرى.

وأهم ما يميز فكر دوركهايم هو قدرته على التطور التاريخي ضمن مراحل زمنية، والتحاور مع ثلاثة اتجاهات فكرية: الفكر الفردي النفعي، والفكر الاشتراكي، ثم الفلسفة الوضعية بإطارها المحافظ، وعموما تتلخص أهم الأفكار التي طرحها دوركهايم في السوسيولوجيا في ما يلي[3]:

1– يعتقد دوركهايم بأسبقية المجتمع على الفرد وقهره له، فالمجتمع له صفة الخارجية والقوة، وهو واقع مستقل له خصائصه المميزة التي لا توجد في أي شيء آخر، والتي تختلف عن تجسيداتها الفردية.

2– يستند البناء الاجتماعي على عمليات أساسية هي التوازن والاستقرار والتكامل.

3– الظواهر الاجتماعية مستقلة عن الفرد ولها وجود بذاتها، تدرس وتنشر بظواهر اجتماعية أخرى، وليست بمتغيرات فردية أو نفسية، أو بيولوجية، لذلك يمكن ملاحظتها.

4– المجتمع هو الذي يفرز الدين كتصور جمعي، له من السلطة الأخلاقية ما للمجتمع ذاته، وتتمثل الوظيفة الرئيسية للدين في تحقيق التضامن الاجتماعي في تشكيل الطبيعة البشرية.

5– التفاعل الاجتماعي عند دوركهايم تحكمه الحتمية الاجتماعية التي لها الدور البارز في تشكيل الطبيعة البشرية.

---

[3]– ياس خضير البياني، مرجع سابق، ص 98.

6- يرى أن المجتمعات ما هي إلا أنساق اجتماعية مكونة من تنظيمات أو مؤسسات اجتماعية باعتبارها تتكون من الأفراد والجماعات التي تسعى لتحقيق أهدافها في البقاء والاستمرار.

7- تأكيده على "القيم الجمعية" ودورها في الضبط الاجتماعي، وكذلك على ضرورة الوجود الاجتماعي والأهمية القصوى للتضامن الاجتماعي.

ثالثا- الظاهرة التربوية عند دوركهايم:

اتخذ "اميل دوركهايم" من الظاهرة التربوية مثالا لتأكيد صحة تعريفه للظاهرة الاجتماعية، فيقول: إننا نستطيع تأكيد صحة تعريفنا لظاهرة الاجتماعية بتجربة عظيمة الدلالة، إذ يكفي أن نقوم بملاحظة الطريقة التي تتبع في تربية الصغار، فحين يلاحظ المرء الأشياء، حسب ما توجد عليه في الوقت الحاضر وحسب ما كانت عليه دائما في الماضي، رأى لأول وهلة أن جميع أنواع التربية تنحصر في ذلك المجهود المتواصل الذي يرمي به إلى أخذ الطفل بالوان من الفكر والعاطفة والسلوك التي ما كان يستطيع الوصول إليها لوترك وشأنه[4].

- وفي ضوء هذا الطرح لظاهرة التربية تتضح صفتها الاجتماعية، فهي ليست من صنع الفرد وإنما من صنع المجتمع فهي تلقائية، جاءت نتيجة تشابك وتفاعل مجموعة من محددات المجتمع الثقافية والاجتماعية والمتعددة في مختلف مراحل تطورها التاريخي.

وهذا يظهر من خلال تربيتنا لأطفالنا الذين نعلمهم عادات وأعراف وقيم ورثناها عن أجدادنا، وبطبيعة الحال فنحن بذلك نساهم في استمرار المجتمع والحفاظ على استقراره.

- كما تتسم الظاهرة التربوية بالنسبية، فكما هو متعارف عليه، أن الظاهرة التربوية، هي نتاج تفاعل عناصر المجتمع الثقافية والاجتماعية، هذه الأخيرة التي

---

[4]- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، التربية والمجتمع، 'دراسة في علم اجتماع التربية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د ت، ص 88.

تختلف من مجتمع إلى أخر، وبطبيعة الحال أن هذا الاختلاف يؤثر على الظاهرة التربوية، وعلى أشكالها وطريقة ممارساتها، وأساليبها والفلسفة التي تنطلق منها.

– ومن سمات الظاهرة التربوية، أنها عمومية، فهي سمة تميز المجتمعات البشرية، سواء بشكل رسمي أو غير رسمي.

– كما تتسم الظاهرة التربوية بطابع الإلزام والجبر، فهي تفرض نفسها على أفراد المجتمع فرضا، من خلال ممارساتهم وعاداتهم التي اكتسبوها من المجتمع، وتظهر لهم بشكل عادي.

– وتتصف الظاهرة التربوية كذلك بأنها شيئية موضوعية، خارجة عن ذواتنا، حيث يمكن إخضاعها للتجربة، ويظهر هذا من خلال طرق تربية الأطفال، والتي قد يلاحظها الجميع.

– وترتبط الظاهرة التربوية بغيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى، فهي لا تعمل في فراغ، وإنما تربطها علاقات مع الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية وغيرها، وتتأثر وتؤثر فيها.

هناك إذن صلة وثيقة بين الظاهرة التربوية وبين المجتمع، فهي تعمل على صنعه، وتنتج العلاقات الاجتماعية، وتشكل الوعي الاجتماعي للفرد والجماعة، وتعمل التربية على نقل هذا التراث الاجتماعي والثقافي، ونقل هذا التراث هو المسؤول عن انتقال الأفراد من الطبيعة البيولوجية إلى الطبيعة الإنسانية الاجتماعية[5].

رابعا– أهم القضايا التي طرحها دوركهايم في مجال سوسيولوجيا التربية:

جاءت اهتمامات دوركهايم في مجال التربية، من خلال ممارساته المهنية، فقد عمل كمدرس لمقرر علم الاجتماع والتربية في كلية الآداب بجامعة بوردو وجامعة السربون بباريس، منذ عام 1887. واصدر في هذا المجال عدة منشورات

[5]– المرجع نفسه، ص 90.

من أشهرها "التربية وعلم الاجتماع" والذي نشر بعد موته، وكتاب "التربية الأخلاقية"، "قواعد المنهج في علم الاجتماع"، "الأشكال الأولية للحياة الدينية"، و"الانتحار". وقد انعكست هذه التجارب الأكاديمية والتربوية والحياتية، على تناوله للقضايا ومشكلات التعليم.

حقيقة وقبل الإشارة إلى أهم القضايا التي ناقشها دوركهايم في مجال علم اجتماع التربية، يجب أن نوضح أنه من الصعب علينا أن معرض لهذه القضايا بصورة مفصلة، بقدر ما نعرض أهم الخطوط العريضة لهذه القضايا والأفكار نظرا لحيز المكان ولاهتمامات دوركهايم في سياق التحليلات الخاصة بالبنائية الوظيفية التقليدية في مجال علم اجتماع التربية. علاوة على ذلك، أننا نلاحظ من خلال مسح التراث السوسيو- تربوي خلال السنوات الأخيرة، أن هناك كم هائل من التحليلات التي تعرضت لأفكار دور كايم بصورة مميزة عن غيره من العلماء، نظرا لاهتماماته بمجموعة من القضايا العامة ذات الطابع الماكروسكوبي (ذو النظرة الشمولية)، بالإضافة إلى اهتماماته الميكرسكوبية (ذو النظرة المصغرة) لقضايا تربوية هامة[6]. ومن أهم تلك القضايا:

1- أشار دوركهايم إلى أنه لا يوجد نوع واحد أو مثل أعلى واحد للتربية عند كل الناس، فالاختلافات في النواحي الاجتماعية والثقافية تلعب دورا كبيرا في نوع البرامج التربوية في المجتمعات المختلفة، فمتطلبات المجتمع الحديث تستلزم وجود مؤسسات تربوية منظمة ورشيدة، وذلك أحد متطلبات المجتمع الحديث للضبط الاجتماعي[7].

2- يرى أن التربية، هي تلك العملية التي بواسطتها، يتم نقل القيم والمعايير للأجيال، فهي التأثير الذي يمارس بواسطة الأجيال الراشدة على الأجيال الصغيرة،

---

[6]- عبد الله عبد محمد عبد الرحمن علم اجتماع التربية الحديث (النشأة التطورية والمداخل النظرية والدراسات الميدانية الحديثة) ، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ص 170-171.

[7]- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، مرجع سابق، ص 129.

وهي جزء أساسي من عناصر ومتطلبات الحياة الجمعية، و تهدف إلى تطوير الفرد جسديا وفكريا وخلقيا.

3- كما تعد قضية التنشئة إحدى القضايا الهامة التي وضحها بعد عرضه لقضية التربية من ناحية المعنى والمفهوم وعلاقتها بالحياة الاجتماعية للأفراد والمجتمع ككل، فالتربية تعتبر جزء أساسي من عملية التربية ذاتها التي تؤهل الأطفال أو الصغار على اكتساب العادات والتقاليد والسلوكيات ونسق القيم والمعايير، من الأجيال الرشيدة (أو الكبار) ومن خلال الأسرة والمؤسسات الاجتماعية الأخرى، كما أنها (التنشئة الاجتماعية) تسهم في استمرارية وجود المجتمع والحياة الجمعية وبقائها. كما تعمل على توفير درجة من التجانس بين الأفراد والجماعات التي تكون المجتمع ذاته[8].

4- ويشير دوركهايم إلى أن التربية، تمتاز بالديناميكية، فهي ليست ظاهرة استاتكية ثابتة بل هي عملية تمتاز بالتغير والتحول، من زمان إلى أخر، والأشكال والطرق التربوية التي عرفتها المجتمعات البشرية عبر الأزمنة المختلفة، والممارسات التربوية، لدليل على ذلك، كما يظهر ذلك أيضا من خلال المناهج التربوية.

5- ومن القضايا التربوية ذات الوحدات الميكروسكوبية التحليلية الصغرى التي اهتم بها ما يعرف بسوسيولوجيا المنهج والتي ظهرت في كتابه "تطور المنهج في فرنسا" والتي تبرز بوضوح إسهامات هذا العالم في مجال علم اجتماع التربية الجديد على وجه الخصوص، حيث اهتم دور كايم بدراسة مشكلات التربية والتعليم في فرنسا ولاسيما قضية المنهج، ونوعية المقررات الدراسية التي تعطى للتلاميذ والطلاب سواء في المدارس أو الجامعات، وعالج دوركهايم من خلال اهتماماته بتحليل نوعية العلاقة المتبادلة بين المدرسة والمجتمع والمقررات والتلاميذ، ونوعية المكاسب الفردية التي يحصل عليها التلاميذ من خلال دراسة المقررات والمناهج

[8]- عبد الله محمد عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 172.

الدراسية، وما هي نوعية الاستفادة بالنسبة للمجتمع من دراسة التلاميذ أو الطلاب لمقررات معينة[9].

6- "وتعتبر قضية العلاقة بين المدرس والتلميذ، من القضايا التربوية الهامة التي تناولها بوضوح، مستخدما مدخله السوسيولوجي التربوي المميز. ولقد ناقش هذه القضية في إطار تحليله للوظيفة النقدية للتربية والعملية التعليمية، خاصة وانه تصور أن الظاهرة التربوية ما هي إلا شيء اجتماعي أكثر منها شيء فردي أو شخصي"[10]، تحدث نتيجة للتفاعل الذي يحدث داخل المدرسة، بين مختلف أطرافها، ويكون لها تأثير على التلميذ خاصة بالنسبة لعلاقته مع مدرسه. حيث اعتبر المعلم الوكيل أو العميل الأخلاقي الأعظم الذي اسند إليه المجتمع، الصلاحيات الكاملة فيما يخص تنشئة الأطفال، لذا من الواجب عليه القيام بهذه المهمة على أكمل وجه.

7- يجب على التلميذ أن لا ينقاد كاملا إلى سلطة وأوامر المعلم وبشكل مطلق، ولكن طبقا إلى تصوراته الذاتية. وهذا يفسر ما طرحه حول الصراع- التسلطي بين التلاميذ والمدرسين وخاصة عند مناقشة قضية المناهج ومحتوى المنهاج الدراسي.

8- كما ناقش دوركهايم طبيعة العلاقة بين الدولة والتربية والنظام التعليمي، حيث أشار إلى أهمية الدولة في تحديد ايديولوجيتها وضرورة حرصها على التخطيط العلمي والسيطرة شبه الكاملة على المدارس بما فيها نوعية المناهج والمقررات الدراسية. وجاء هذا الاهتمام من خلال إيمان دوركهايم بالدور التنظيمي أو المؤسساتي للدولة، بما فيها مؤسسات التعليم على تنشئة الأفراد وخلق روح التضامن الاجتماعي في الحياة الاجتماعية ككل، في نفس الوقت حرص دوركهايم ليوضح

---

[9] - عبد الله عبد محمد عبد الرحمن، علم اجتماع التربية الحديث (النشأة التطورية والمداخل النظرية)، مرجع سابق، ص173-174.

[10]- عبد الله عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 354.

العلاقة بين الدولة والمؤسسات التربوية (المدرسة)، والأسرة ونوعية المناهج وعمليات الإبداع والتعليم الأخلاقي وتنمية المهارات الفردية وتكوين الشخصية[11].

9- ويرى دوركهايم أنه لا يوجد نظام تربوي واحد لكل أفراد المجتمع، وإنما هنالك أنظمة متعددة، الشيء الذي يؤدي إلى التنوع في التكوين والإعداد المهني نتيجة لوجود تخصصات مختلفة والتي يتطلب كل منها نوعا مختلفا من المعارف المتخصصة وتكون متماشية مع روح العصر الذي توجد فيها، وأسلوبا منيعا من التفكير والقيم نتيجة لتقسيم العمل الذي يتناسب معها.[12]

10- كما ركز دور كايم على أهمية وضرورة التخطيط للتعليم في ضوء التخطيط الشامل للتنمية الاجتماعية.

الخاتمة:

حقيقة أن عملية تحليل المشروع السوسيولوجي لدوركهايم، يعطي للقارئ، والمتتبع والدارس لقضايا السوسيولوجيا التربوية، تصورات ومفاهيم وأفكار جديدة طرحها هذا العالم في هذا الحقل، والتي بالفعل ساهمت بوضوح في تطوره وبلورته. كما يظهر من خلال ما سبق أن دور كايم قد ربط في تحليلاته بين المداخل أو الوحدات التحليلية الكبرى والصغرى في نفس الوقت في القضايا التربوية التي عالجها. بالرغم من انتمائه إلى أبز الاتجاهات النظرية الكلاسيكية التي تعتمد على تحليل الوحدات الكبرى، وهي البنائية الوظيفية.

وهذا ما جعل الكثير من المداخل والمنظورات السوسيولوجية الحديثة التي لا تزال تبين القضايا التي طرحها دور كايم ضمن هذا الاتجاه عند دراستها للقضايا السوسيوتربوية الجديدة.

---

[11] - المرجع نفسه، ص 175-176.

[12]- Emile Durkhiem, Education And Sociology, Glencoe; Illinois : The Free Press, 1956, p 67.